البحث الأدبي (1)

(مفهومه)

البحث في اللغة معناه: الطلب، والتفتيش، والحفر، جاء في لسان العرب:" البحث طلبك الشيء في التراب". ويقال: بحث في الأرض: أي حفر. وبحث عن الخبر أي سأل. وكذلك استبحث: تعني السؤال عن الشيء، والاستخبار عنه. فمن أراد أن يطلب شيئا غاب عنه، أو أن يبحث عن شيء لا يقع تحت مستوى إدراكه، يبدأ بالتفتيش والتنقيب، والسؤال والاستخبار عنه لكي يتعرف عليه، ويدرك أبعاده.

والبحث في المعنى الاصطلاحي العام: هو معالجة فكرة/موضوع معينة لمعرفة كنهها وأبعادها. والفكرة أيا كان نوعها لا توضع موضع البحث، والتفتيش، والحفر، والسؤال إلا إذا تحققت فيها الشروط الآتية:

- أن تكون الفكرة ذات أبعاد محددة.
- أن تكون الفكرة خاضعة للمنطق تحليلا وتركيبا.

أما البحث بمعناه الخاص فهو: علاج فكرة معينة (أو مجموعة أفكار متقاربة متماثلة) بطريقة علمية تخضع للمنطق السليم، وتثبت بالحجج والأسانيد. ووفق هذا التحديد فالبحث بمعناه الخاص أشبه بالقضية المنطقية، التي تنطلق من المقدمات، مرورا الموضوع المراد البرهنة عليه، لتصل إلى النتائج.

فالبحث في طابعه الخاص، معالجة استقصائية لموضوع دقيق في مجال تخصصه، تستند إلى منهجية تقوم على ثلاثة أجزاء رئيسية: مقدمة تعرض فيها المشكلة، ثم الموضوع الذي تناقش في حدوده تلك المشكلة الذي يخضع بدوره للتصنيف، والتبويب والتفصيل، ثم النتائج التي يتوصل إليها الباحث، والتي يفترض فيها تقديم الجديد، مما يجعل البحث بمعناه الخاص عملية بناء مستمرة لا تنقطع مراحلها من جهة، وبالنظر إلى هذا التحديد من جهة ثانية نلاحظ أن البحث بمعناه الخاص يطبق في كل مجالات الفكر والمعرفة لا فرق في ذلك بين مجال العلوم التجريبية، ومجال العلوم الإنسانية كالتاريخ، والفلسفة، والأدب.

– البحث الأدبي: يعرف البحث الأدبي، على أنه: "محاولة لاكتشاف المعارف الأدبية، والتنقيب عنها، وتنميتها، وفهمها، وتحقيقها بتقص دقيق، ونقد عميق، ثم عرضها عرضا مكتملا بذكاء وإدراك". أو هو "طلب الحقيقة الأدبية فيما حفظ لنا التراث من مصادر، وإذاعتها". أو هو: بحث في موضوع من موضوعات تاريخ الأدب، أو قضاياه قديمها وحديثها، فالمجال الذي يدور حوله البحث الأدبي هو الأدب بشعره ونثره، والدراسات التي دارت حولهما،.. منذ عزم الباحث على الدراسة وتحديد الموضوع، حتى تقديمه ثمرة عمله إلى النقاد، أو القراء، أو المشرفين: (مقالا)، أو (كتابا)، أو (بحثا أكاديميا يسعى صاحبه إلى الحصول على درجة علمية معينة).

البحث الأدبي (2)

(مادته)

مادة البحث الأدبي، هي الأدب بفرعيه الشعر والنثر وما ينضوي تحتهما من أجناس وأشكال فنية، وما يطرحانه من قضايا ورؤى وإشكاليات. والأدب كظاهرة يختلف عن بقية الظواهر الطبيعية الموجودة في الحياة، فالظواهر الطبيعية يحللها العلم ويتوصل فيها إلى نتائج وقوانين واضحة جلية، يستطيع من خلالها التحكم فيها بزيادة أثرها أو الحد منه ، أما الأدب فتحوطه هالة من الغموض ويشوبه التعقيد ؛ لأنه يخاطب العواطف والأفكار، ويصدر عنها، محاولا التبليغ والتأثير من خلال الصورة واللفظة الموحية، التي تختلف معانيها باختلاف المقاصد التي يتغياها الأديب، وباختلاف أفكاره ومشاعره التي تتبدل بتبدل المواقف والرؤى، دون أن يفيد (الاختلاف) الانفصال عن المجتمع وحاجاته، فالأديب (ومنه الأدب) ذاتي وغيري في آن معا، ينطلق عبر تجاربه من فضاءاتها الخاص إلى فضاءاتها الوطنية القومية فالإنسانية الرحبة، يعبر عن حرارة التجربة ودفء المشاعر في صور اتساقها (أو رفضها وتمردها) مع النسيج المجتمعي (والإنساني) الذي يعيش فيه.

ويترك الأديب نتاجاته الإبداعية بكل محمولاتها الثقافية والاجتماعية والنفسية، ومنطلقاتها الفكرية وتوجهاتها المعرفية، موضوعا للباحثين في مجال الأدب لإعمال أدواتهم، وشحذ قدراتهم من حيث الوعي بأبعاد تلك النتاجات، والقدرة على تفسيرها وتحليلها، وتتبع كل جزئية من جزئياتها انطلاقا من حروفها، وأصواتها، ومفرداتها، وتراكيبها، وصورها، ومعايير التصوير في نسقها الأسلوبي والسياقي،..، والبحث في مستويات التطور، ومستويات التجديد في المحتوى والشكل الفني، مع قراءة واعية لثقافة المبدع، ودراسة أثرها في مقومات الإبداع، ثم ربط الثقافة والإبداع بإيقاع المرحلة بما تنضح به من تعددية وتنوع،...وغيرها من المستويات والأطر التي تختلف من باحث إلى آخر بفعل اختلاف المناهج، والإشكاليات التي يتحراها كل باحث، والأهداف التي سطرها للبحث، محاولا استجلاء الحقيقة النسبية، معبرا عن خلاصة قراءاته وقناعاته، مع الأخذ بعين الاعتبار ما تفرضه مثل هذه البحوث من شروط أهمها شرط الإبقاء على النتاج – الشاهد – مجالا خصبا يسمح بقراءات ورؤى جديدة.

ولعل محاولة الباحث الكشف عن كل ذلك خلال البحث، وبالنظر إلى ما في العمل الأدبي من غموض وسديمية من جهة، وبالنظر إلى ما يحكمه من قناعات ذاتية، وما تفرضه طبيعة البحث من شروط من جهة ثانية، يجعل من البحث في مجال الأدب عملية صعبة تحتاج من الباحث في حدودها معرفة مجموعة من الأ سس والقواعد، تبدأ أولا بمعرفة الخصائص العامة لهذا النوع من البحوث، ثم الخطوات التي لابد من التزامها والسير على هداها، والوعي بالمناهج التي تستند عليها، وكذلك مجموع الآليات التي تستعين بها في سبيل تحقيق الغايات والمقاصد.

البحث الأدبي (3)

(خصائصه وشروطه)

– الأصالة والجدة: ونعني بالأصالة " تميز الأفكار الواردة في البحث بالجدة والأهمية العلمية، وتميز الباحث بالاستقلال الفكري "، دون أن يعني الجدة (هنا) أن تكون الأفكار مبتكرة تظهر لأول مرة، أو في صورة اختراع معين، إذ الابتكار والإبداع على هذا النحو مطلب صعب التحقق في مختلف البحوث، وبخاصة فيما يجري منها في مجال العلوم الإنسانية عامة والأدبية على وجه الضبط والتعيين. لذلك تظهر أصالة البحث – حتى لو كانت الفكرة وعناصرها ومشكلاتها موجودة من قبل – في حقل الدراسات الأدبية في تعددية المناهج، التي تعد مدخلا إلى جدة المعالجة، وفتح مساحة من الإضافة والاختلاف مع إمكانية الوصول إلى نتائج جديدة، كما وتظهر أيضا في أسلوب معالجة الأفكار، وفي الأمثلة والتطبيقات التي يقدمها الباحث في التدليل والاستنتاج.

– المشكلة: وتفيد قدرة البحث على إثارة مشكلة تصبح مصدرا للدراسة، ونقطة مركزية يدور حولها الباحث بالتأصيل والحوار والعرف المنهجي، بما يمثل إضافة تتجاوز المطروق إلى الجديدة. وعليه تعتبر المشكلة إحدى مقومات البحث الأساسية عامة والأدبية خاصة، يساهم تحديدها وإدراك أبعادها في انطلاق عملية البحث.

– الموضوعية: وتعني الالتزام بالقواعد العلمية أثناء إدراج الحقائق والمعلومات، وفي عرض نتائج، وذلك من خلال: الاستناد على الحجة والبرهان، والابتعاد عن إصدار الأحكام النهائية، والاعتراف بالنتائج المستخلصة حتى لو كانت لا تنطبق مع تصورات البحث وتوقعاته، أي أن تكون كافة خطوات البحث قد تم تنفيذها بما يتناسب ومستلزمات البحث ومقرراته، لا وفق تصورات ونتائج مخطط لها سلفا، تعكس ميولات وقيم الجهة المنفذة للبحث.

– التعددية: لارتباطه (أي البحث الأدبي) بالخيال وملكات التصوير في تحليل الظواهر الإبداعية، وفي تدفق المادة اللفظية بما تحمله من مواقف وأفكار وقناعات ورؤى قد تتسع – أو تضيق – حولها مساحات التلاقي أو التباعد بين الباحثين. بالإضافة إلى تداخل البحث الأدبي بالعلوم الإنسانية المجتمعية، والنفسية، التاريخية، وغيرها من الفروع المعرفية، على ما يجمع بينها من الوحدة، وما يفصل بينها من زوايا التنوع والاختلاف، يعتبر وجها من وجوه التعددية.

– التبسيط والتسلسل والاختصار: يقال في الأدبيات المنشورة حول أساليب البحوث العلمية: أن ذروة الابتكار والتجديد في مجال العلم، هو التبسيط في المعالجة، والطرح المتسلسل، والعرض المختصر. وبالنظر إلى طبيعة البحث الأدبي ومادته يصبح التسلسل المنطقي بين جزئياته وخطواته، وتوازن الارتباط الذهني وتكامله بينها في بعده عن الإرباك الفكري الناجم عن الحشو والاستطراد، أو الغموض والتعقيد، جوهر الابتكار فيه ولبه.

البحث الأدبي (4)

(خطواته)

*- اختيار موضوع البحث : تعتبر عملية اختيار الموضوع أولى خطوات البحث عامة، وأصعبها في المجال الأدبي خاصة، لأن عملية الاختيار تلك تتطلب ثقافة واسعة وعكوفا مستمرا على القراءة (بسبب كثرة الموضوعات أو تشابكها، أو عمقها، أو غموضها، أو ضيقها، أو اتساعها،...) حتى يتسنى للباحث في هذا المجال الاهتداء إلى موضوع يتفق مع ميولاته البحثية من جهة، وقابلا للدراسة من جهة ثانية. ولكي يكون الموضوع قابلا للدراسة لابد أن تتوفر فيه مجموعة من الشروط، يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

- حجم المادة المتوفرة في صلتها المباشرة بموضوع البحث، ودرجة أصالتها، وإمكانيات الحصول عليها.

- إمكانات الباحث الفكرية والذهنية، والجسمانية والنفسية.

- حجم الإضافة العلمية التي سيقدمها البحث في مجاله.

- تضييق مجال البحث وحصر جزئياته من خلال تعيين العنوان.

* ضبط العنوان: يعرف العنوان على أنه: " وصف لمحتوى البحث في أقل عدد ممكن من المفردات الدالة ". ولكي يكون العنوان دالا على الموضوع، يشترط فيه أن يكون:

- شاملا بحيث يتمكن كل مطالع من أخذ فكرة جيدة عن المضمون .

- دقيقا لا يعد القارئ بأكثر مما يحصل عليه من قراءة البحث ذاته .

- واضحا لا يتيح الفرصة لإساءة الفهم أو الحيرة في المعنى .

- موجزا يعطي الرسالة المطلوبة منه في أقل عدد من الكلمات، دون أن يفيد الإيجاز الإلغاز، ويتحقق ذلك بتجنب ذكر الاختصارات، والكلمات غير واضحة المعنى.

- مُفهرسا يتضمن أكبر عدد من الكلمات المهمة، التي يمكن أن يفهرس الموضوع تحتها بطريقة سليمة ودقيقة.

*- ضبط إشكاليات البحث: يشكل تعيين إشكالية البحث العنصر الأساسي الذي يضع البحث في اتجاه معين. إذ أن البحث الذي لا يحدد إشكالياته يؤدي إلى تشعب في الآراء والأفكار ، وبالتالي إلى تناقضات كثيرة يصعب على الباحث ضبطها أو السيطرة عليها.

ولعل صياغة الإشكالية في صورة "سؤال" من أفضل صور الضبط والتعيين، لأن الاستفهام يحدد العلاقة بين العناصر الأساسية المشكلة للعنوان، كما أن الاستفهام يساعد على جذب انتباه القارئ، ويدفعه نحو طلب الإجابة أكثر من الصيغ الأدبية التقريرية (وهي الطريقة الثانية في صياغة الإشكاليات البحثية الأدبية).

*- بناء خطة البحث: أو مخطط البحث، وهو " تقرير، مبوب ومنظم، يعطي المشرف والقارئ فكرة واضحة عن الطريق الذي يريد الباحث سلوكه".وينبني هذا المخطط على مجموعة من العناصر، هي:

- مقدمة البحث: وهي عبارة عن " رسم للمعالم الرئيسية للبحث في صورته النهائية "، تتكون من مجموعة من العناصر الأساسية، هي: التعريف الموجز بالموضوع وإشكالياته، وأسباب اختياره، وأهم الدراسات المنجزة في إطاره، وخطته، ومنهجه، وأهم مصادره، وصعوباته، والشكر والتقدير إلى الجهات التي ساهمت في انجاز البحث ، وعلى رأسهم الأستاذ المشرفة والجهة المؤطرة للبحث.

- أقسام البحث: وتأتي بحسب حجم الموضوع ومادته في شكل أبواب (تتضمن فصولا، ومباحثا، ومطالبا، وفروعا،...)، أو فصول (تنقسم إلى عناوين أساسية، وأخرى فرعية).

- خاتمة البحث: " آخر البحث مما يرسم خلاصته، ويوضح نتائجه، ويرصد توصياته ".

*- جمع المادة العلمية وتدوينها: وتتوزع عملية الجمع على مرحلتين: مرحلة الجمع الخاصة بالمصادر والمراجع (عن طريق الاقتناء، أو التصوير، أو الشراء، أو الاستعارة،...)، ثم التصنيف الجدولي لها بتدوين كافة بيانات النشر المتصلة بها. ومرحلة جمع النصوص وتدوينها من مصادرها، وعلى الباحث قبل القيام بهذه الخطوة/المرحلة، معرفة:

- أولا: وسائل جمع المادة، وأهمها على صعيد البحوث الأدبية القراءة والاقتباس.

- ثانيا: نظم تدوين هذه المادة، وأبرزها نظام البطاقات ونظام الملفات. ينتقل بعدها الباحث إلى عملية الجمع والتدوين الفعلي للمادة من مصادرها، أو ما يسمى ب "التقميش".

*- كتابة البحث: يبدأ الباحث عملية الكتابة والتحرير بالاستناد إلى خطة البحث، والمادة المقمشة التي تخضع للتنسيق والترتيب بحيث تتوافر العلاقات المنطقية فيما بينها، كما تفترض التحليل والتفسير، والاستقراء والاستنباط،...وغيرها من الآليات التي يستعين بها الباحث في المجال الأدبي، بحيث يتبدى البحث، بحسن استخدامها، بنية متفاعلة تتنامى وتتصاعد دون خلل أو تناقض.

البحث الأدبي (5)

(مناهجه)

كان من آثار نهضة العلوم الطبيعية والتجريبية في القرن التاسع عشر أن اجتذبت مناهجها طائفة من مؤرخي الأدب نادت بمحاولة تطبيق هذه المناهج على الدراسات الأدبية، وعلى رأسهم "سانت بيف" الذي كان يدعو إلى تطبيق قوانين علم النبات على تاريخ الأدب، وإخضاع دراسة (هذا التاريخ) لمناهج (علم النبات) عن طريق دراسة شخصيات الأدباء من كل جوانبها، لمعرفة خصائصها التي تميز كل أديب منهم عن سواه (ويستبعدها)، وما يشترك فيه مع غيره (ويبقيها). وهي معرفة تيسر للباحث عملية تصنيف هؤلاء الأدباء إلى مجموعات، أو بعبارة أخرى تصنيفهم في مدارس أدبية تتميز كل مدرسة بطابع عام يشارك فيه أفرادها جميعا. وعلى هديه سار تلميذه "تين" الذي حاول تطبيق مناهج التاريخ الطبيعي وما يقرره أصحابه من تأثير الزمان والمكان في الكائن الحي، فقد ذهب إلى أن هذه العوامل هي نفسها المؤثرة في الأدب بل في الفن عموما، فكما أن الإنسان صنع الوراثة والبيئة والزمان، فكذلك الأدب نتاج الجنس والمكان والزمان أكثر منه نتاجا فرديا خالصا، فلكل جنس صفاته الإنسانية المؤثرة في طباعه وسلوكه وشخصيات أفراده، ولكل زمان ظروفه السياسية والاجتماعية والفكرية التي تطبعه بطابعها المميز، ولكل مكان خصائصه الطبيعية التي تجعل منه بيئة جغرافية تختلف عن غيرها من البيئات، وهذه العوامل كما تؤثر في الكائن الحي تؤثر في الأدب، وهو بذلك يسقط (كما فعل أستاذه) الفردية والأصالة الأدبية تماما. ومثلهما فعل "برونيير" الذي حاول تطبيق نظرية "دارون" في تطور الأنواع، على أساس أن الفنون الأدبية تخضع – مثلها مثل الكائنات الحية – للقانون نفسه في نشوء أشكالها وتوالدها وتطورها، ووضع "برونيير" نظريته في تطور الأشكال الأدبية، وأخذ يطبقها على ثلاثة من فنون الأدب الفرنسي في عصره (المسرح، الشعر الغنائي، النقد الأدبي). غير أن مثل هذه الدعوات ما لبثت أن هدأت مع مطلع القرن العشرين تحت تأثير نمو العلوم الإنسانية وتطورها، وبعد أن لاحظ مؤرخو الأدب أن مادته أقرب إلى العلوم الإنسانية منها إلى العلوم الطبيعية، وعليه لابد أن يتجه صوب الدراسات التاريخية والنفسية والاجتماعية والجمالية وغيرها من الدراسات الإنسانية، لينتفع بما حققته من تقدم وتطور، وما انتهت إليه من نتائج، وما استخدمت من مناهج، حيث بدأت تظهر محاولات لدراسة الأدب من وجهة نظر تاريخية، ونفسية، واجتماعية، وجمالية وغيرها من وجهات النظر التي تتجه إليها العلوم الإنسانية، وتعددت – تبعا لذلك – مناهج الدراسة الأدبية، ومضى مؤرخو الأدب يبحثون عن مناهج جديدة لدراساتهم الأدبية، تبتعد عن مقاييس العلوم الاجتماعية والنفسية والجمالية، وفي مسعاهم البحثي هذا ظهرت مناهج، وتطورت ثانية، وانزاحت أخرى،...وفي ضوء هذا التعدد (والكثرة) تطورت البحوث الأدبية، ووصلت إلى ذروتها مع ظهور المناهج السياقية والنصية التي تفرض على النقاد والباحثين خطوات إجرائية محددة في مقاربة الأثر الأدبي، وبات الباحث في هذا المجال لا يكتفي بمنهج واحد في دراسته لكي ينهض بعمله على وجه الكمال والدقة.

منهجية القراءة

تعتبر القراءة واحدة من أهم وسائل جمع المادة العلمية في البحث الأدبي، وتحديد مجاله، والوقوف على أبعاده، وبيان جزئياته، وبلورة وجهات النظر فيه. وللقراءة مراحلها وخطواتها التي على الباحث الإحاطة بها لتحقيق أكبر قدر من الفائدة، وهي كما يلي:

– القراءة الفهرسية السريعة: وذلك بالاطلاع الكشفي السريع في فهارس المكتبات وتسجيل عناوين المصادر والمراجع التي يعتقد الباحث في صلتها المباشرة (أو غير المباشرة) بموضوع البحث. مع حرص الباحث على كتابة عنوان المرجع، ومؤلفه، ورقمه في تصنيف المكتبة.

– القراءة الفهرسية التخصصية: وذلك بالاطلاع الكشفي في فهارس الموضوعات الخاصة بالمصادر والمراجع التي جمعها في مرحلة القراءة الفهرسية السريعة، بهدف تحديد المراجع ذات العلاقة الوثيقة بالبحث، وتعيين الفصول والأبواب والعناوين في تطابقها لما هو محدد في خطة البحث من جهة، ثم الانتقال إلى مرحلة قراءة فهارس المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها المراجع التي عينها الباحث في بناء مادتها/موضوعها بهدف توسيع دائرة البحث من جهة ثانية. مع الحرص على تدوين كل معلومات النشر الخاصة بالمرجع من (عنوانه، ومؤلفه، ودار النشر، والطبعة، وتاريخ النشر،...)، بالإضافة إلى الفصل أو الباب أو العنوان الذي له علاقة بجزئيات أو تقسيمات موضوع البحث.

– القراءة التمهيدية: وتعني القراءة الأولية أو المبدئية في مقدمات المصادر والمراجع، وفي الفصول والعناوين التي حددها في مرحلة القراءة السريعة، حتى يتسنى له التأكد من مدى ارتباطها، وأهميتها، ودرجات مساهمتها في بناء البحث.

– القراءة التعمقية: أو مرحلة القراءة الأصلية للمادة المختارة، والتفاعل معها بطريقة تسمح بمعرفة أبعادها، وفهم ما تطرحه من أفكار ورؤى ومفاهيم، إيذانا ببدء عمليات الاقتباس والتدوين على مستوى البطاقات أو الملفات التي يكون الباحث قد قام بإعدادها مسبقا. مع تسجيل كل ما يتعلق بالمادة المقتبسة أو المنقولة من حيث المرجع ومعلومات النشر، والصفحة التي نقلت عنها المادة، فضلا عن تسجيل بعض الملاحظات والشروحات فيما يتعلق بالمادة المنقولة، والتي تكون في الأغلب الأعم من صنيع الباحث.

وفي العموم تساهم المراحل ال(04) التي تحكم عملية القراءة، في: اختصار الوقت والجهد، وتنظيم العملية البحثية برمتها.

الكتابة الأدبية

ينبغي في أي بحث أدبي أن تتوفر له دقة العرض بحيث تظهر الفصول متسلسلة والفقرات متناسقة، وبحيث تطرد المقدمات مع نتائجها. ومن أجل تحقيق ذلك من الواجب أن لا يبادر الباحث إلى الكتابة في البحوث الأدبية قبل أن يستوعب مادته ويتمثلها عملا متكاملا له كيانه المستقل عن البحوث الأخرى، وليس مجرد حشد من المعلومات والبيانات المتراصة بعضها إلى بعض.

ولكي يتحقق ذلك على الباحث أن يمتلك معرفة بوسائل وآليات البحث الأدبي وأدواته من نقد، وذوق، وتحليل، وفهم، تفسير،...، ولا بد له من ملكات خصبة تستطيع النفاذ من الحقائق الجزئية إلى الحقائق الكلية، وما ينتظم فيها من الخصائص الصفات العامة (الاستقراء والاستنباط).

وإلى جانب تلك الوسائل والأدوات لابد أن يكون الأداء سليما، بحيث تتوفر، خاصة للباحث المبتدئ، لغة سليمة ومعرفة دقيقة بالألفاظ التي يستخدمها من حيث تبين معناها، كما هي حال في وصف الأساليب، وفي ألفاظ الأحكام الأدبية، بحيث لا يورد الباحث هذه الألفاظ بصيغة التعميم إلا حين يتأكد من اندراج جميع الجزئيات في الحكم الأدبي، وهو قلما يحدث في مجال الدرس الأدب، لأن جزئياته كثيرا ما تتخلف عن الحكم العام، لذلك من المستحسن أن يلقيه (أي الحكم) في صيغة من صيغ الظن والشك، فيقول: " أكبر الظن"، و"أظن"، و"لعل" وغيرها من الكلمات التي تدل على الاحتمال، أما عبارات اليقين والجزم القاطع فمن الأفضل تجنبها، لأن الأحكام الأدبية غالبا ما تكون أحكاما احتمالية.

وإذا كان على الباحث في موضوع من موضوعات الأدب استخدام الصيغ الاحتمالية، عليه أن يتجنب الحشو الإطناب، لأن القارئ ينتظر من البحث أن يقرأ الاستنباط السليم والبرهان الدقيق، أما ما دون ذلك من إشارات متكررة إلى فصول البحث وفروعه، وما سينهض بتوضيحه في البحث، فيقع في دائرة الحشو الممل، وهو دليل ضعف البحث والباحث . فضلا عن ذلك لابد أن يستقيم للباحث أسلوب واضح فصيح، فالكثير ممن اشتهر بجودة بحوثه ودراساته الأدبية – رغم سطحية أفكارها – يرجع إلى قدرته في الإفصاح وبراعته في البيان.

وعلى العموم على الباحث الأدبي قبل أن يبدأ الكتابة أن يتقيد ببعض المبادئ المتعارف عليها بين جماعة المؤلفين عامة، وهي: الدقة والأمانة في العرض، والنقد بلا تجريح، والتعليل بلا تحامل، والترجيح بلا انحياز، والنقاش بلا مكابرة، وذكر الانجاز بلا ادعاء أو تبجح. وليحذر من أن يضيف إلى نفسه فضلا ليس له، أو هو لا ينفرد به، أو أن يمسك على إرجاع رأي إلى صاحبه، وأن يعنف مخالفه في الرأي، فينحدر إلى السخرية منه، أو الطعن فيه ، وعليه أن يشير في ختام بحثه إلى ما توصل إليه بكل تواضع، ثم يعترف باتساع المجال في الموضوع لأبحاث أخرى، ولافتقاره (أي الموضوع)إلى مزيد من البحث المتخصص.

الاستقراء

عماد البحث الأدبي وقوامه، والاستقراء هو إحصاء الحقائق الجزئية (من مفردات، وأمثلة، ونصوص،...) وتصنيفها من أجل استنباط حقائق كلية (من خصائص، وأنواع، وقضايا، وظواهر،...) تؤكدها قوانين السببية العامة، حتى يكون الاستنباط صحيحا مزودا بالأدلة الكافية من الأمثلة والبراهين.

وفي سبيل توضيح كيفية عمل هذه الآلية، نعرض إلى بعض الأمثلة التي أوردها (شوقي ضيف) في كتابه "البحث الأدبي" في هذا الشأن، فخاصية " الأضداد المتناقضة أو نوافر الأضداد" التي تعتبر أهم خاصية فنية يتميز بها أبو تمام في قصائده، وما يصوغه من أخيلة وأفكار، إذ تحول شعره بمعانيه وصوره إلى متحف ضخم للأضداد المتلاقية، فإذا النهار المضيء يصبح مظلما حين تطلع فيه صاحبته لغلبة أضوائها على أضوائه، وممدوحه (ابن أبي دؤاد مستشار المعتصم) ملتقى لضدين، فالناس تحبه (لكرمه) وتبغضه (لعزه) في آن معا، وإذا النهار المشمس على صفحة الرياض المزهرة، كأنه ليل مقمر بأحلامه وأشعته الفضية،...الخ. ولو أن باحث أبي تمام لم يتقص كل نتاجه الشعري (أو أكثره) لظلت هذه الخاصية محجوبة غير مكشوفة. فالاستقراء الكامل لقصائد الشاعر ساهم في استنباط أهم الخصائص في شعره.

وعلى نحو ما ينبغي (يقول ضيف) من استقراء كامل للجزئيات والأمثلة لاستنباط خاصية أو ظاهرة معينة، ينبغي الاستقراء الكامل لنصوص العصر حتى لا يقع الباحث في مجال الأدب في تعميمات وأحكام خاطئة، كما هو حال بعض الدراسات الإستشراقية في قضية أو فكرة أن الشعر في عصر صدر الإسلام ظل على صورته الجاهلية إلا بعض آثار طفيفة ظهرت عند بعض الشعراء من أهل المدينة، وهي مخالفة صريحة للمنطق أن يحدث تطور هائل في نفوس العرب على إثر انتقالهم من حياة الوثنية المادية إلى حياة الإسلام الروحية، وأن لا تنعكس أصداء الانتقال والتحول على (أو في) أشعارهم، أو أن لا تعم هذه الأصداء كامل الجزيرة وتمس كل شاعر في ربوعها، ولعل المتصفح لكتب التاريخ والأدب والتراجم يلاحظ بوضوح خطأ الفكرة التي نشأت من التقصير في استقراء الأشعار واستقصائها في منابعها الكثيرة.

وكثيرا ما يبدل (كما ينوه ضيف) الاستقراء حكما خاطئا شاع بين الباحثين كما هي الحال لدى استقراء أشعار المتنبي في كافور الإخشيدي (مدبر مصر وقت ذاك)، فمن الباحثين من يقول أنه تحول في بلاطه شاعرا مأجورا، وعبدا ذليلا لصاحب السلطان،..وكل ما يماثل هذا من الذم الشنيع، دون استقراء دقيق وكامل لأشعاره في كافور، وتصريحه فيها بأنه لم يفد عليه لماله وسلطانه، وإما لما وعده به أصحابه (أصحاب كافور) من ولاية (إمارة) علها تكون نواة لرجعة الدولة العربية، وبداية تحقق حلم الشاعر في استعادة مجد العرب والعروبة الضائع.

الاستنباط

يستقرئ الباحث الأدبي الجزئيات ويحصيها، ثم يفحصها ليدون ما يستنبطه من خصائصها وصفاتها الكلية، مستعينا على ذلك ببيان الأسباب والدوافع والغايات والنوازع. فالبحث الأدبي استقراء واستقصاء للنصوص وإحاطة، واستنباط واشتقاق من النصوص للخصائص والصفات، مع بيان العلل الباطنة، ولابد أن يُدعم كل استنباط بنصوص تؤيده، أما إذا لم يقترن الاستنباط بنصوص فإنه لا يكون حينئذ استنباطا بل يكون فرضا، والبحوث الأدبية لا تتعامل مع فروض، وإنما تتعامل مع نصوص تشتق منها الظواهر والخصائص، ومهمة الباحث الأدبي ليست تقديم الفروض خاصة تلك التي لا تُستمد من نصوص ولا تدعمها نصوص، وإنما دراسة تلك النصوص والأمثلة واستخلاص الخصائص والظواهر الأدبية، لذلك فإن أكثر ما يؤذي البحوث الأدبية هو الفروض، لأن الفرض (إن وُضع) ولم تسعفه الشواهد والأدلة (في إثبات صحته) فقد قيمته.

وإن كانت الفروض تضعف البحث الأدبي فإن قلة الاستنباطات تضعفه أيضا، إذ يحس القارئ أنه أمام باحث لا يمتلك المهارات الكافية في سبر أعماق بحثه، ومن الأمثلة التي يسوقها (شوقي ضيف) على ذلك زهديات العتاهية ومواعضه، وحديثه في الثواب والعقاب يجعل القارئ يعتقد أن الرجل كان صحيح العقيدة، وأنه كان يستمد زهده من مصادر دينية إسلامية، دون أن يعي شك من عاصره في استمداد زهده من المانوية، حتى إذا رجع إلى ما كتبه الجاحظ في كتاب الحيوان من أن معتنقي المانوية يصدرون عن إيمان خالص بأن أجناس الخير تخالف أجناس الشر، وأن في كل حاسة من حواس الإنسان جنسا قائما بذاته من النوعين، ثم قرأ عند العتاهية قوله:

الخير والشر هما أزواج لذا نتاج ولذا نتاج

وقف على صحة ما قاله القدماء في تشرب روحه لمبادئ المانوية، ومن ثمة على ضعف الاستنباط، وعلى عدم عمق الباحث في دراسته أو بحثه.

ومن الأمثلة أيضا البحث في علاقات التأثير والتأثر بين رسالة الزوابع والتوابع لابن شُهيد الأندلسي ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري من خلال جامع مطلق وهو أن كل عمل منهما (رحلة خيالية في عالم الغيب)، دون الالتفات إلى أن من بين الشياطين الذين لقيهم شهيد في رحلته شيطان بديع الزمان الهمذاني ، وقد عرض عليه بعض نثره وأجازه، وبالرجوع إلى مقامات بديع يجد بينها مقامة إبليسية، يحاور فيها إبليس بعض الشعراء، مشيرا إلى أن الشياطين مصدر إلهامه، لذلك ينبغي أن تدور المقارنة بين هاذين العملين، وخلو بحث يتناول الموضوع من هذا التنويه دليل على ضعف الاستنباط والمستنبط. وفي العموم فالبحوث الأدبية استنباطات متعاقبة تضفي على حقل الأدب طابع التطور والاستمرارية والتجديد.

التفسير

أهم صفة ينبغي أن تتوفر في البحث الأدبي، وهي صفة ترجع في حقيقة الأمر إلى ملكة الباحث، ومدى قدرته على تبين العلل الكلية للظواهر الأدبية، حيث ينطلق الباحث في مجال الأدب من العلل والأسباب الجزئية حتى ينتهي في الظاهرة إلى أسباب وعلل عامة تضم حقائق الظاهرة الجزئية وتفسرها تفسيرا دقيقا، إذ على الباحث أن يسند بحثه بتفسيرات تزيد من عمقه، وتتداخل في بنائه العام، بحيث يضع له العلل والأسباب التي تجعل منه عملا مترابطا محكما شد بنيانه بعضه إلى بعض شدا وثيقا.

ويشير (شوقي ضيف) في كتابه "البحث الأدبي" إلى كيفية اشتغال هذه الآلية من خلال عرض بعض القضايا التي احتاج فيها الباحث في مجال الأدب إلى دقة التفسير القائمة على بيان العلل والأسباب، ومنها قضية المذاهب الفنية، فمذهب مثل مذهب التصنع، أو التكلف الشديد الذي طبع الشعر العربي في عصر من العصور يحتاج إلى ما يسنده من تصنع مماثل على صعيد الحياة العربية في تلك الفترة، ومن الشواهد الدالة على ذلك الوزير الذي كان يأكل اللون الواحد من الطعام بملاعق متعددة. وعليه فلا عجب أن يدل بديع الزمان الهمذاني في هذا الجو المثقل بالتكلف على مهاراته الأدبية بكتابة رسالة تقرأ من آخرها إلى أولها بالضبط كما تقرأ من أولها إلى آخرها، أو أول سطورها كلها ميم وآخرها جيم، أو خالية من الألف واللام، و مثله ذهب الكثير من الشعراء فنجد قصائد من الحروف المعجمة ،وأخرى من الحروف المهموزة،...إلخ.

وإذا كانت المذاهب الفنية (كما يقول ضيف) تحتاج إلى دقة التفسير، فكذلك الكثير من البحوث التي تتعلق بالشعراء القدامى خاصة ممن صدروا عن عقائد شيعية أو أفكار فلسفية أو اعتزالية، أو ما تعلق منها بشعراء العصر الحديث كما هي الحال مع النقد الذي وجه للشاعر أحمد شوقي في أنه لا يعبر في شعره عن ذاته وميولاته وأحوله النفسية، وهو نقد تعوزه التفسيرات الدقيقة والبيان الواضح لأسباب هذا التوجه ودوافعه، أو في استخدامه لبعض الصور القديمة في التعبير عن أحداث العصر وقضاياه، كاستخدامه " للسيف والرمح " في وصف الحروب الحديثة، والتي لا يريدها شوقي لذاتها أو في معانيها الأصيلة (القديمة)، بقدر ما يستخدمها استخداما رمزيا يضفي على الصورة روعة وجمالا، ويمنحها بعدا أكثر عمقا ودلالة، ويبقي على الخيط الرابط بين الماضي والحاضر.

وكما يحتاج نتاج شوقي الشعري – في كثير من جوانبه – إلى دقة التفسير، تحتاج أشعار البارودي خاصة في تشابكها مع التقاليد الشعرية الموروثة إلى مزيد من التفسير لدحض تلك الانتقادات التي ترى فيه " ينظم بأذنه لا بعينه "، أي أنه كان ينظم على محفوظه من الشعر القديم لا على ما يعتمل بداخله وما يقع تحت بصره، دون النظر في تمثله النادر للصياغة القديمة المحكمة في ارتباطها بحياته الراهنة وحياة أمته، والنابع من طبيعة تكوينه، فهو خريج مدرسة حربية، وشارك في الكثير من حروب، وشارك مبكرا في الحركات الوطنية، وتعرض إلى النفي، ...، فانطبعت في روحه مشاعر الفارس العربي القديم، وسرت هذه الروح في نصوصه.

التذوق والتحليل

لابد للباحث الأدبي أن يمتلك القدرة على تذوق النصوص الأدبية، وهي ملكة أو مهارة تنشأ من القراءة المستمرة للشعر وآثار الأدباء قديمها وحديثها، بحيث تصبح استجابة الباحث لما يقرأ استجابة فاعلة تعي قيمة المقروء وتتذوقه تذوقا سليما مجردا من الأحكام المسبقة ولا تكبله المرجعيات. وهي بمثابة الخطوة الأولى في البحث الأدبي، حيث لا يكتفي الباحث برصد ما تخلفه تلك القراءة من أحاسيس تجاه ذلك الأثر، بل يحاول أن يعلل هذه الأحاسيس وينتقل من التذوق إلى العلل والأسباب، انتقالا يحلل في تضاعيفه الأثر الأدبي تحليلا يوضح جماله وتأثيره في النفوس.

وعليه فإذا كان التذوق هو الأساس الذي يبنى عليه البحث الأدبي، فإن التحليل هو البناء كله، فكل ظاهرة أو قصيدة، وكل عمل أدبي، وكل أديب لا بد أن يحلل إلى عناصره التي يتكون منها بحيث تفصل بعضها عن بعض لمعرفتها معرفة دقيقة، فقوة التصوير التي تميز بها شعر زهير في العصر الجاهلي (على سبيل التمثيل) تحلل إلى الاعتماد على الزمان، والمكان، والألوان، واستخدام العبارات التي تعطي المصورات قوة المنظورات، ويحلل التصوير في شعر شاعر مثل أبي تمام إلى الاعتماد على المزاوجة بين العقل والحس، فإذا منه تجسيم، وتشخيص، وصور خيالية مبتكرة تغذيها الفلسفة والثقافة العميقة في محاولة الكشف عن حقائق الحياة الخبيئة.

وبالقياس على ما ينبغي من تحليل لآثار الكاتب ينبغي تحليل شخصيته من خلال البحث في المؤثرات الداخلية والخارجية التي ساهمت في تكوينه أدبيا، فقد كان للأحداث السياسية والقومية التي طبعت الحياة أو البيئة المصرية تأثيرا قويا وواضحا في شعر البارودي (مثلا)، وكان للتعليم في فرنسا وآدابها الرومانسية دورا كبيرا في تشكيل شاعرية إسماعيل صبري.

وكما تحلل المؤثرات التي كونت شخصية الشاعر، تحلل المؤثرات التي ساهمت في غلبة غرض من الأغراض في شعره، كما هي الحال عمر بن أبي ربيعة مع الغزل الذي لم ينظم الشعر في غرض سواه، ومرد ذلك إلى عوامل نفسية واجتماعية، فأما النفسية فتتمثل في شعور الفرد بنفسه وكان في الجاهلية يفنى في قبيلته، ولا يحس لنفسه وجودا بدونها، وهو لهذا يتغنى بوقائعها الحربية ومفاخرها، يمجد أسيادها ويهجو خصومها، أما في عصر عمر فقد تحول الشعر من الحديث عن القبيلة إلى الحديث عن النفس ومشاعرها إزاء العاطفة الخالدة عاطفة الحب، بينما تتصل المؤثرات الاجتماعية في هذا الغزل فترد إلى تحضر المرأة وما تمتعت به من حرية.

وعلى نحو ما تحلل أغراض الشعراء وشخصياتهم، تحلل اتجاهاتهم الجديدة الفردية والجماعية،...وغيرها من الموضوعات التي يحتاج الباحث في مجال الأدب إلى آلية التحليل في تقصيها.

تحقيق النصوص الأدبية

يعد تحقيق النصوص فرع من فروع البحث الأدبي، وهو يتصل بالتاريخ الأدبي من ناحية، كما يتصل بالنقد من ناحية أخرى. وقد تخصص في هذا الفرع عدد من العلماء ووهبوا له جهودهم، ويأتي على رأسهم محمد محمود شاكر وعبد السلام هارون وأحمد راتب النفاخ، حيث قام هؤلاء العلماء وغيرهم بتحقيق عدد من أمهات الكتب العربية والنصوص تحقيقا علميا، وأصدر بعضهم عدد من الكتب المهمة التي توضح قواعد التحقيق العلمي، لعل أهمها: كتاب عبد السلام هارون بعنوان " تحقيق النصوص ونشرها"، والذي صدر في طبعته الثانية سنة 1965، وكتاب " أصول نقد النصوص ونشر الكتب" الذي تم نشره سنة 1969، وهو عبارة عن مجموعة من المحاضرات ألقاها المستشرق الألماني "برجشتراسر" بكلية الآداب بالجامعة المصرية – جامعة القاهرة حاليا – سنة 1932/1931.

كما ونعثر على بعض الإشارات المقتضبة حول قواعد تحقيق النصوص في الكتب الأدبية ذات الصفة التخصصية، من مثل كتاب " البحث الأدبي" لشوقي ضيف، الذي يرى أن كل كتاب ينهض شخص بتحقيقه ينبغي أن يقدم له بترجمة مختصرة حول مؤلفه، ومنهج تأليفه، وعن المصادر التي أُخذت عنها مادته، ويشير إلى اعتماد صاحبه على المشافهة والمشاهدة إن كان قد اعتمد عليهما الكتاب في نصوصه، ثم يتحدث عن قيمته الأدبية ومدى الإضافة التي حققها في مجال البحوث الأدبية أو العلمية المتصلة به مبينا صلته بالفروع التي أخذت عنه، ثم يصف نسخته أو نسخه التي اعتمد عليها في نشره وصفا دقيقا من حيث نوع الخط ومدى تشكيله ونقطه، ومن حيث عدد الأوراق وطولها وعرضها ومساحة المكتوب منها وعدد سطورها، وما دخل عليها من نقص أو تمزيق أو اختلاط، ومن حيث التاريخ الذي يحدد زمن كتابتها، وما عليها من قراءة أو إجازة أو حواش. ثم يوضح الطريقة التي اتبعها في تحقيق الكتاب، مبينا أمهات المصادر والمراجع التي استعان بها في تحقيقه. ويضيف (شوقي) على ذلك ضرورة التقيد بتقسيمات المؤلف لكتابه، وعدم إدخال عناوين جديدة إلا عند الضرورة القصوى، فضلا عن العناية بعلامات الترقيم، وضبط أسماء الأعلام ضبطا دقيقا مع مراعاة تشكيلها، وشكل الآيات، والأحاديث، والأشعار، والأمثال، والألفاظ الغامضة، بالإضافة إلى ضرورة إلحاق الكتاب بفهارس تيسر للقارئ الانتفاع به.

أما "عمار بوحوش" فقد أشار في كتابه "منهج البحث الأدبي في إعداد الرسائل الجامعية" إلى الأسس التي يتبعها المحقق أو الباحث في عملية التحقيق في النصوص الحديثة الناقصة عن أصلها لأسباب دينية، أو سياسية، أو أخلاقية، أو شخصية، أو تجارية، أو عملية التحقيق في النصوص المتعددة الطبعات، من خلال : فحص الوقائع التاريخية والمناخ العام السياسي والاجتماعي والثقافي والأدبي الذي كتب فيه الأثر، والعودة إلى المصادر والمراجع، وحسن استخدامها، أو ما يمكن تلخيصه تحت اسم "الدراسة الخارجية "، ثم العودة إلى النص وفهمه بكل أبعاده اللغوية والبلاغية والجمالية، أو ما يسمى ب "الدراسة الداخلية".

توثيق النصوص الأدبية

عني القدماء عناية بالغة بتوثيق دواوين الشعر ورواته حتى ينفوا عنه الزيف من نحل أو وضع، وقد مضوا يمحصون أسانيدها (ج سند) ومتونها. ومن الكتب التي توضح هذا العمل الجليل كتاب " طبقات الشعراء" لابن سلام، وهو خلاصة لما وثقه العلماء (علماء البصرة على وجه التحديد) من نصوص الشعر القديم، وقد نص في مقدمته على أن العلماء في الشعر يستطيعون بملكاتهم المدربة التمييز بين جيده ورديئه وصحيحه وزائفه، وتحدث حديثا مفصلا عما دخل روايته من انتحال على ألسنة الرواة ممن يحسنون الشعر وينسبونه إلى القدماء، أو القبائل التي كان تزيدها في مفاخرها جعلها تتزيد في أشعارها.

ومن الكتب أيضا التي عنيت بالتوثيق من صحة الإسناد في الشعر كتاب "الأغاني" للإصفهاني الذي لم يقف عند توثيق الشعر عند أسانيده ورواته، بل كان يمد ذلك إلى المتون أو النصوص، جامعا بين نقدها نقدا خارجيا يتصل بالإسناد، ونقدا داخليا يتصل بالنصوص وما يتفق منها مع الوقائع والأحداث الصحيحة، وما يتصل بنمط الشاعر وأسلوبه، محتكما إلى ذوقه وخبرته الفنية بأساليب الشعراء وخصائصهم في الصياغة والتعبير.

وإذا كان علماء الشعر قد بذلوا في توثيق الشعر القديم كل جهد، فقد بذلوا الجهد نفسه في توثيق المصنفات والنصوص الأدبية (ومثلها اللغوية) الموغلة في القدم أيضا، ويظهر ذلك بوضوح في نسبة الكتاب إلى مؤلفه، وفي تسجيل تاريخ الفراغ من تأليفه، وفيما ذكر في مقدمته من أسماء أشخاص عاصروا المؤلف كالوزراء والحكام والأمراء،...وغيرهم، فقد كان الأسلاف عادة ما يهدون مصنفاتهم لهؤلاء ويصرحون بذلك في فواتحها، وفي اقتباس الكُتاب من نصوصه وآراء صاحبه.

ومن أكثر الأمثلة الدالة على عناية العرب بتوثيق النصوص الأدبية منذ القدم مخطوطة المغرب التي كتبها " ابن سعيد " بخطه، ووثق أو سجل كتابته لها على صفحة العنوان في كل سفر (مجلد) من أسفارها ال (15)، وسجل اسم من أهداها إليه، ومكان كتابتها وتاريخ الانتهاء من كل سفر من أسفارها، وتقع كل هذه التواريخ بين سنتي (645 و647 هـ)، فضلا عن تلك الاقتباسات التي أوردها الصفدي في كتابه "الوافي" التي تعود لمخطوطة ابن سعيد، مما يدل على أنها (أي المخطوطة) مُعينة النسب (أي موثقة).

وفي العموم فقد عني العرب منذ القديم بتوثيق النصوص الأدبية، والذي استمر متواصلا جيلا بعد جيل، وشهد تطورات واسعة مع تقادم الزمن، وهو ما تشدد عليه المنهجيات الحديثة، من ضرورة توثيق المادة العلمية من مصادرها الأصيلة، فالتوثيق هو الركيزة الحقيقة التي يعتمد عليها الباحث في تقصي الحقيقة، وذاكرة الأمة المضيئة اليقظة الحصينة التي لا يدركها النسيان، وحلقة وصل متينة تصل حاضر الأمم بماضيها.